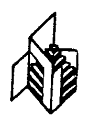
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافى
فرع ثقافة الإسكندرية



رنين الصمت

مجموعة قصصية

سلسلة مرجان سكندرى - 4
مرجان النثر

إصدارات فرع ثقافة الإسكندرية

المراسلات: باسم مسؤول النشر الإقليمى
المساكن الاقتصادية - شارع وينجت - بولكلى

رنين الصمت

مجموعة قصصيّة

أ. د. السعيد الورقى

السـرد
بين لغة الباليه .. وباليه اللغة
(محاولة إيجاد النصّ البديل)

بقلم/ حنان شلبى

لهذا الحدّ يمكن للغة أن تكون رشيقة، وللحدث أن يتخلــى عــن ماهيّته كسبيل للتمسّك بها أو للتأكيد عليها بتعبير أدق ، وللمكـــان أن يتخلّى عن مكانيّته / جغرافيّته، كأسلوب للتأكيد على خصوصيّاتــــه، وللزمان أن يتخلّى عن زمانيّته، كطريقة للحفاظ على سماته الفارقـــة وميزاته، (الحركة / الثبات / التواصل / ....)

لهذا الحدّ تفقد الحياة دهشتها، كى تستردّها أو كى تعيد اكتشـــافها بطريقة أكثر طزاجة وحيوية ، فيبدو المـــألوف غريبـــاً، والواضـــح مبهماً، والمغلق منفتحًا، والمستحيل ممكناً، والعكس أيضاً ...

تدّرجات غير ملحوظة ...، تبدأ من قبل الصفر السالب لتمتدّ إلـــى ما بعد اللانهاية ، فتتجسّد الضمنيّة فى الظاهريّـــة، والســكون فـــى الحركة، والجمال فى القبح و ...... إلخ، منهج خاص جدّاً للتعـــرّف على فلسفة الحياة من أو بـــ ... منظور مغاير.

فالأنا أكثر من أنا،.. والآخر أكثر آخر ، .. وهذا أمر طبيعـــى لأن العالم أكثر من عالم بالفعل،.. لاغرابة إذن أن يتفتـــت الحـــدث داخل حدوده أو خارجها، ليتجمّع من أو ليتفرّق فى أكثر من حـــدث

(دواخلها أو خوارجها أيضاً)، حتى وأنت تقـف فـى فـراغ، أمـام مرآتك.. قد لا ترى نفسك فقط، فدائماً هناك من تحبّـهم، أو تشـتاق إليهم، أو تقدّرهم، أو ترفضهم، أو تكرهم، أو .. إلخ.

(نظرت فى المرأة .. تملّكتنى الدهشة المباغتة ..، كانت المـرآة لامعة، وكلّ ما حولى معكوساً عليـها ، سـواى ..! كـان مكـانى فارغاً..، قصّة: العزف على أوتار الصمت)

فالواحد ليس واحداً صحيحاً دائماً أو بالضرورة، إنه أكثر مـن أو أكبر من الواحد بدرجة أو بأخرى، والبرىء ليس بريئاً تماماً ، علـى الرغم من أن المتّهم قد يكون متّهماً تماماً .. لذلك ليس من الحتمـى – حال إمكانيّة وجود ما هو حتمى – تحديد شكل السؤال أو الإجابة :

– أطلبتنى

– ......

– قالوا لى إ......

– ....

– إنك ....

– بقدر الإمكان ...

"قصّة: ألوان العطر الوحشى، وانظر حوارات المجموعة"

اللفظة هنا (فى الكمّ الأعظم من هذه المجموعة) راقصة بالـيـه، تنحنى على ذاتها (روحها / جسدها) ، أوعلى ذات الآخر، لا لتفجّـر

معنى ما فقط، ولكن لترسم هذا المعنى أو غيره (بمفرده أو مع غيره، أكبر منه أو أصغر منه) وتجسّده وتكسبه صفة الحياة والاستمرار، وتسمح لبعض تفاصل دلالاته أن تنطلق بصورة كلّيّة، ولبعضها الآخر أن ينطلق بصورة جزئيّة، وتمنح الحرية مطلقة لبعض المفاهيم، أو تحدّ منها للبعض الآخر.

إنها (أى اللفظة/ راقصة الباليه) ترتدى ما يشفّ عن جسدها أو عن روحها، لا لتبين عن جانب جمالى فقط، ولكن لتوكّد على أبعاده وتستثمر طاقاته داخل إطاره، من أجل تحطيم هذا الإطار الآنى المقيّد وتتخطّى حواجز الحاضر، بل وحواجز المستقبل: (بحثت عن أوتارى القديمة أبتعث ألحاننا، أخفى ظلام الليل كل شئ، والحزن يولد فى المساء، كما يقول الشاعر، ... قصّة: العزف على أوتار الصمت)، (حاولت التوقّف .. وبعد أن استكانت لليأس ، جاءها صدفة.. شعرت بظمأ شديد وهى تسحب ثوبها لتخفى ماتعرّى، قصّة: أصداف زبد الموج).

إن اللفظة (راقصة الباليه)، تمارس رقصها الموقّع، أو توقّع ممارساتها الراقصة فى انسيابية حالمة، تحطم فضاءات الحاد، ومفاجاءات الزوايا، بل وحدود التموّج ذاتها أيضاً، لدرجة تجعل من الأشياء كلهّا شيئاً انسيابيّاً واحداً، ربما لا تكون له نهاية أو بداية سوى فى الافتراض.

هنا فقط ـ وفى مثل هذا الموضع ـ تكون اللغة رشيقة وبالفعل، فى ثيابها الحالمة (ثياب الرقص)، وفى ثيابها الحياتيّة أيضاً، (ثياب

الواقع)، (ياسيّد الملاعين .. ها أنذا أجثو بين يدى رحمتك ، أعفّر وجهى بالساقط من نعلك .. الدم بدل الدم، واللحم عوض اللحم، والنفس بين يديك .. سابحة،.. أوقدا النار .. وفاحت رائحة الشواء .. فغاب ولىّ الأمر عن الوعى، قصّة: فتوحات سيّد الزمان)، (نهض متثاقلاً ، يسحب بقايا نعاس خامل، لم تبدده المفاجأة بعد، قصة: فتوحات سيّد الزمان).

إن كل شئ واضح كل الوضوح، وغامض كل الغموض، يغريك باستخراج وضوحه من غموضه، أو بالعكس، ويدفعك لممارسات استبطانيّة/ استنتاجيّة/ ...، داخل المغامرة الفنيّة وخارجها.

(لا أذكر أنى تغيّبت عن المكان،... ومع ذلك فقد بدا أن كل شئ ينكرنى... يبتعد بقدر ما أدنو ... فالكلّ يتحرّك من حولى إلى الخارج... أوقفتنى الحيرة فى منتصف الساحة ... وجعلت أدور حولى فى دائرتى، قصة: رياح الأشرعة الثلجيّة).

هكذا يشحن النصّ المتلقّى بكل ما فيه (داخله)، وما ليس فيه (خارجه)، بكل ما يحتاجه، وما قد لا يحتاجه، بكل ما يجب وبعض ما لا يجب، إنها محاولة لمساعدة المتلقّى لخلق تناصه - (السّرى/العلنى/المغلق/المفتوح/العام) - الخاص ... من خلال تموّجات حياته أو حياة غيره ، أى مساعدته على إيجاد نص بديل... يبدأ من المشاركة فى إبداع النص، ولا ينتهى إلاّ بإرادة المتلقّى ذاته.

والله من وراء القصد ...،

فانتازيا المسمع الأخير

منذ سنوات لا أتذكّر عددها، وأثناء تطوافي العابر ... هبطـــت أرضاً جديدة... كان دفء البكارة وعذريتها، يتمدد في ربوعها.

توقّفت عندها، وحلا لي أن أمارس بعض طقوسي المقدّســـة... رفرفت الدهشة، تكوّمت حمامة بيضاء تدّاخل بين ذراعيّ ... وعبــق الجوّ برائحة الانبهار.

حرثت الأرض، فغطّت الخضرة زمن الفجاجة... توسدت لحظة الانتشاء، وأغمضت عينيّ وأنا اعتصر الكـــرم... ســكرت زمانــاً وزماناً.

عندما دقّ ناقوس اللحظة، بدا وكأن القطار يستعدّ للمغــادرة ... كان صوته عندما تحرك، فحيحاً ... يشبه الألم.

* * *

تدافعوا ... تزاحموا ... وانفضّــوا... توزّعــوا ... بســمات البلاهة، وتبادلوا السباب فى صمت.

ماذا عن الأشياء... تكلّم الحاضرون، والغائب خاســر... فــى صمته الأبدى يراقب... جمع الطفل الشرير سقطات الأغبياء... حـدد لكل دوره ... تململت البلاهة ولم يحن بعد موعــد الانقضــاض... عابثه: مضى زمانك وانقضت أيامك ... وضاع العمر وما وُليـت... انتفض فى ذعر مكلوم... كلا وربّى... إنها لنا، فانتظروها فى ابــن أخى،... تمدد الألم قبيحاً، ولم يستطع متابعة الحوار...، قالت أصابع الحكمة: بقاؤك مع من لا تحب... ألم.

* * *

عندما زرته بالأمس، كان محموماً للغاية... حدّثنى طويلاً عــن الظلم الذى لحق به... لم استطع أن أقول له إنك تريد أن يحقق لـــك الجميع ما تريده، وإلاّ فهم يكرهونك ... قلت لـــه: ... الألــم شــديد

الوقع... أجابنى ... أرأيت كيف تآمروا علـــىّ ...؟ قلــت لـــه: ... أضنانى الخلاص...! أجابنى: لم أنم ليلة أمس... قلـــت لـــه: الألـــم قلق...، أجابنى: أرأيت...، يريد كل شئ ولا يهتمّ بى ... أنت الآخر تريد أن تأخذ كل شئ...! قلت له: ... هل تدرك عمـــق الألـــم ...؟ لعلك تتألّم أنت الآخر... أجابنى ... لن أترك الأمر يمرّ هكـــذا، وإذا كنت لا تعرفنى، فأنا مقاتل شرس ... وتابع حديثه: رحم الله زمانـــاً ... كان ... وكان ... وكان ... لم أستطع تحمّله أكـــثر ... كـــانت أحشائى تتدافع فى صوت مسموع ... يا إلهى ... كيف لى أن أتحمّل كل هذا الألم.

* * *

أزاحتنى بقرف شديد ... أرجوك ... إنّك تسبب لـــــى شـــعوراً بالمهانة والألم ... لم أعد أتحمّـــل أنفاسك...!

كلّما أبصرتْه ... تقهقه الفرحة فى عينيها ... تلتقط الألفاظ مـــن فمه، فتضحك دون سبب... تغمرها الفرحة، فترفرف بيـــن جنـــاحىّ كلماته... سألته بشبق يتدلل ... أين كنتَ... طـــــالت غيبتـــك هـــذه المرّة...؟ هل تعرف كم كانت وحشتك...؟

لم ينطق،... شدّ مشدوها إليها لا يعرف كيف يجيب... ولم تكـــن تنتظر منه إجابة... كانت مندفعة فى الحديث، لتملأ فـــراغ المســـافة بينهما ...

هل تعرف يا أنت، كم هى مؤلمة، الأيام معك...! يعذّبنى حديثك كما يعذّبنى صمتك، وأسمع أنفاسك الآتية من جحيمـــى ... فــأتعذّب بك...!

* * *

لم أعرف أين أذهب... طافت قدماى شوارع ... أرصفـــة ... ومحلاّت... ثقلت خطواتى بالألم، فلم أستطع متابعة السير... جلسـت عند أوّل مقعد صادفنى... تكوّمت شاخصاً لكل من يمــرّ ... كــان الصغار يغطّون فى نومهم... أردت أن أقبّلهم، لكنـــى لـم أفعـل... تسللت من هدوئهم، وكانت الظلمة تغطّى وجه الأرض، وبــدت كـل المسرّات مضنية.

هكذا شعرت الملكة ... عندما شاهدت طفلها والأعاجيب التـــى رافقت ولادته بالحزن الأليم...، وعندما صادف على جانب الطريـــق عجوزاً محنىّ الجسد، مجعّد الوجه، ينمّ حاجبـــاه عــن الألـــم، قــال لحوذيه: من هو هذا...؟ ذو الرأس الأشيب والعينين المغمضتيـــن... والجسد المحطم...؟ ارتبك الحوذى... بعد تردد ... تجرّأ على قــول الحقيقة.

على البوابة الكبيرة، أوقفه صارخاً ... سيعهد إليك حكم المملكـة فى غضون سبعة أيام،... وستصبح سيّداً على كل القارات،... وعلى ألفى جزيرة متاخمة... فقط عليك أن تبقى.

* * *

أكّدت الأيام التى تلت، أن ما حدث كان وليد صدفة ســاخرة،... فقد قتل الملك فى تمثيلية مضحكة،... واختلفوا فى سبب موته، فقـالوا إنه أكل وشرب كثيراً، فلم يستطع التنفّس فمات... وقالوا: إنـــه دسّ السم فى كأس شراب لكبير وزرائه بعد أن استفحل أمره، وشربه هـو بالخطأ فمات... وقالوا: إنه رقد منتشياً بنصره فى غزوته الأخيرة... ولم ينهض.

ولمّا لم يكن قد استخلف أحداً، فقد وقعــت الحـيرة ... ونظـر القائمون على الأمر فيمن يستخلفونه من بينهم ... فلم يتّفقوا، فدفعــوا برجل من أهل السابلة... قالوا له: ... يا هذا قد استخلفناك علينـا...! فانظر ما أنت فاعل ... تحيّر الرجل وقال: أريـــد طعامــاً، فــأكل وشبع،... ثم طلب شراباً فشرب حتى ارتـــوى... تجشّــأ بصــوت مسموع، واتّسعت بسمته عن ذى قبل، فقد كان مفتوح الفم لآخره.

ألوان العطر الوحشي

خاطفاً مرّ بطول العمر... انتشرت السلاحف والعناكب وديـــدان البحر... تصاعدت الأبخرة فى سحابة كثيفة لم تمطـــــر... تـــوارت الشمس ... وغطّت المكان ظلمة موحشة، شجّعت مخلوقات الجحــور على الخروج متلصصة، فلمعت عيونها فى الظلام.

أذن له بالدخول،... فصافحت قدميه بسطٌ مطـــرزة... فحيـــح الأفاعى حول جذع الشجرة، أصاب الطـــائر الصغـــير بذعـــر شـــلّ حركته،... وتسرّبت رائحة الزهور البرّية،... بينما اندفعـــت حفنـــة غزلان مبعثرة بين الأحمر والأخضر والأصفر والأرجوانى... رفـــع عينيه من فوق أصابع قدميه، فاستقرّتا فوق المقعد... جالتا بين ســـائر التفصيلات... لم يكن مندهشاً بقدر الاقتناع،... فـــالملامح يعرفـــها جيّداً... تدافع الأحمر والأخضر والأصفر والأرجوانى تحت حوافـــر الغزلان... ووقف الطائر المذعور معلّقاً فـــى خوفـــه... اســـتنفرت الأوراق الخضراء الزرقاء فى ترقّب متحفّز:

- أطلبتنى
- ....
- قالوا لى ! ......
- ....
- إنك

أثارت رائحة الشرّ المعجونة بشهوة حيوانيّة مشاعره ... فـأحسّ بتوتّر متحفّز... حرّك طائر الخوف جناحيه فى يـــأس ... وانتظـــر لحظة السقوط:

- هل ......
- ليس كما تتوقّع

- إذن ......

- بقدر الممكن...

نهض... تقدّم وتقدّم... اختفت الملامح، فترنّح فى القهقهة فـــى مستوى الرأس .. تدلّت الصورة معلّقة فى الإطار... نفس الملامـــح وقد جحظت العينان.

هل تقدر أن تركب شريطة ألاّ تنزلق...؟ كانت أفواه التماســيح الجوعى متراصة وساكنة على سطح المستنقع الذى هدأت حركتـــه، وأصبح من العسير أن تتنبأ بشئ عن المطر... من يملك المفتــاح ... لا يقدر على استخدامه ... مع أن الوجهين متطابقان...!

- أين هويّتك

ابتلع الصمت المزق المتناثرة فى امتنان... داهمت الأفيال فـــى وداعة حواف المستنقع... امتصّت فى تلذذ قبيــح عفونتـــه، فتقلبــت التماسيح فى بركة الطين ...، منذ اليـــوم الأوّل وأنـــا هنـــا... عـــمّ الفساد... والقسوة كانت مظهراً مقدّساً... سحبت أردافها فـــى تثــاقل متعمّد... نظرت خلفها لعيون اللهثة وتابعت الغناء: يا أبنـــاء اللعنـــة الجوعى... أتحدّاكم للنزال...، فليشحذ كل واحد منهم ســيف مذلّتـــه بقدر ما يستطيع... هل كان علىّ أن أحطم سيوفهم:

- ماذا فى الـــ ......

- قبح العالم

- وماذا ...

- أفواه شرهة

- وماذا

- الأحمر والأخضر والأصفر والأرجواني

* * *

كل شئ سئ، ولا يمكنك الفرار ولا المواجهة ... وما لا يشبعك يحسسك بالجوع...!

تناثرت قطرات الماء تحت أشعّة الشمس... تبعثرت معها الألوان متكسّرة... عندما أصابك شئ منها، لم يبال بالاعتذار ...ومضى فى ممارسته المفضّلة...!

لم يحن الوقت بعد، وعليك الانتظار... تدرك ريبة ما فى الأمر... يتحرّك سرّ غامض بين شفاههم، كلّما باغتّهم تحيّرت...؟ ضحكتهم الصلعاء كثيرة التّجاعيد... هل يمكن أن يكونوا متوقّعين... ربما شلّ الانتظار تفكيرك...!

كنت تعرف طريقك جيداً... والآن ماذا وراءك؟

لا شئ بالمرّة ... وهكذا بدت الرحلة غريبة وغامضة وفارغة ... وخلال الانتظار فقدت كل أسلحتك... تجرّدت من كل شئ... وبدوت مسخاً فى عريك.

أنت يا من بصقته أمّه لعنة، للحظاتى المُمِضّة... فلتلعنك كل الشياطين التى لم تسمع بها... أما كففت معابثاتك المريضة... بللنى الماء ... على ما اعتقد لم تفلح محاولاتى فى اتقاء قطراته التى حملتها الرياح العكسيّة ... كل الغباء تحالف ضدك، وماذا انتويت... لا تستطيع الفرار ولا المواجهة، فطوبى للحمقى أبناء الرذيلة ... وطوبى للغفلة والملاعين.

ربّما مكثت اليوم أطول... وهذا يفسر بلا شك هذا الاختفاء الخاص،... ومن المؤكّد أنه سوف يتوقّف فى لحظة ما، عندما يمكنك أن تخرج له لسانك، ويمكنك أن تهلل ... إذا أردت.

عندما واجهها ... لم ترتبك، ولم تنزعج، واعترفت له بكل شئ... اندفعت التفاصيل كرابيج نار... تقطّعت كل التفاصيل ... حتى الأحمر ... الأخضر... الأصفر ... والأرجوانى بذكرياته التى ذبحت على ذيله المنسدل المنشال... يا ابنة الحظّ العاثر...! هل أنت متأكّدة...؟

بصقت فى وجهك ما تبقّى من التفصيلات... وعندما روت كل شئ توقّفت... ولم يبد عليها توقّع شئ ما... هزّت كتفيها بلا اكتراث.

* * *

هل كان بالحجرة فراش...؟ تاهت عيناه فى فراغ متّسع وممتدّ من القسوة اللذيذة... وتصاعد اللحن الشيطانى فى جوف الغابة، شذا من عطور مرجانية، عبق الجوّ برائحة الأعشاب البحرية وأزهار الليمون وزنابق الديفوديل البرّية... تحسست أنفاس العشب المندّى برائحة الزعفران، ولهثت آلاف الأميال.

الساعة المعلّقة على الحائط تهتزّ بتلقائيّة منتظمة...، على الحائط المقابل لوحة لأشياء مبعثرة...، من السقف تدلّى مصباح متخاذل ... والنافذة الوحيدة مغلقة.

انكمشت أرجل المقعد، وقد استند إلى الحائط،... والمنضدة تجثو فوق البساط.

دقّت الساعة فى فتور، وسقط نصف الشمس المغربة فى ماء البحر الساكن... تحرك الأحمر الأخضر والأصفر الأرجوانى... تحرك ماء البحر قليلاً... مالت السفينة، مال معها الصيّادون... أشباح متراقصة... عوى الواقف على الشاطئ بصوت لم يسمعه سواه،... ففزعت عصافير الستارة الحريرية لحظة... عادت إلى سكونها عندما صرّ الباب، وقد فتح فجأة... تحرّكت كل الأشياء فى قلق حقيقى ... وانزلق قرص الشمس،... فى وسط الحجرة وقف متردداً... أدرك أنه لم يلق قبولاً مشجّعاً... تلفّت معتذراً، واصطدمت عيناه بأصابع قدميه العاريتين... صعدت عيناه. مسحتا كل شئ ... وانكمش فى نفسه... تراقصت أشباح المصباح المدلّى فى تخاذل،... وحاول الاستيعاب.

رياح الأشرعة الثلجيّة

هل كانت السماء مشرقة صباح اليوم؟ أمْ أنى اعتقدت هــذا ...؟ لعلها كانت ...، كل ما أتذكّره وقد أظلمت السماء فجأة وغطّتها كآبــة رمادية،... أنها كانت بلون البهجة المتراقصة، وأنى كنت أقفز داخــل ثيابى فى خضرة مُسكْرة ... واحتوتنى نشوة فوّاحة العطور، كنت... كمن خرج لتوّه إلى العالم ... أتنفّس اللهفة فــــى رقصـــات الـــنزق الطفولى،... وفجأة زحفت سحابة داكنة، فغطّــت وجــه الســماء...

وارتعشت الأرض... وقفت حائراً بين الأرض والسماء ... حمل الهواء البارد إلى صدرى قسوة الظلمة ... فانكمشت ... وبدوت شيئاً ضئيلاً داخل ثيابى الفضفاضة ... فلملمتها فى ذعر منكسر،... ورأيتنى شيخاً عجوزاً محنىّ الظهر، أتوكّأ على بقايا الأيام المهزومة فى عرى فاضح.

* * *

سقط فجأة كأنّه ما كان... وأصبح فى لحظة عابرة، شيئاً هامداً ممدداً فى وسط الطريق... تجمّع المشاهدون... ألقى كل عابر نظرة سريعة...، وانصرف مسرعاً... خيّمت بشاعة المشهد على المكان، وتطوّع حامل الصحيفة الأوحد،... ففرد صفحاتها عليه... أطلّ عنوانها الرئيسى ... العالم مهدد بالفناء.

* * *

عندما ملأت رائحة الجاو والمستكة والصندل والقنب الهندى، البهو الواسع،... أصبح المكان مهيّئاً لممارسة الطقوس الوحشيّة... دمدمت الأصوات فى وقاحة سافرة تعلن قدومه، فتوقّفت الأنفاس شاخصة... كان ممدداً بطول سقف البهو الفسيح،... ويداه مفرودتان حتى الأرض... كان كتلة من نار متوهّجة، وقد احتوى المكان بذراعيه... ماذا تريدون يا تعساء ...؟ مزيداً من الأمنيات التعيسة...! وانفجرت ضحكة شيطانيّة مجلجلة ... ستلحقكم لعنتى

الأبديّة حيث تكونون... أمطرت السماء سيول اللعنة،... فعام المشهد في عفن مقزز، وارتفع صراخ الأيدى المتخبّطة طلباً للنجاة...، لم تلبث الأرض أن انشقّت وابتلعت المشهد بأكمله ... وصاح زهو الانتصار بحمقه المتعجرف، فأظلم المكان ... وعاد فارغاً.

• • •

قالت وهى تلوك شيئاً فى فمها... لم يعد جسدى لك، فعجّل بالرحيل،... ثم وهى تنفض شيئاً علق بثوبها ... ليتك ما كنت بزمنى شيئاً ...

حطّ على الأرض ولم يستطع النهوض ... قاوم بكل ما تبقّى له... كانت قد أولته ظهرها... صرخ بأعلى صوته ... لم تخرج الصرخة لأبعد من جوفه... استنهض فيه قوى التخاذل،... فطرحته أرضاً... أخذ يرفص بقدميه وساقيه فى يأس ... شاخت أطرافه... كان كمن يجدّف ضد التيار... فاستسلم لبرودة شاحبة ... وزاغت عيناه فى الفضاء.

• • •

لا أذكر أنّى تغيّبت عن المكان،... ومع ذلك فقد بدا أن كل شئ ينكرنى... يبتعد بقدر ما أدنو ... فالكل يتحرك من حولى إلى الخارج... أوقفتنى الحيرة فى منتصف الساحة ... وجعلت أدور حولى فى دائرتى.

أعرفهم جميعاً، فقد كانوا معى البارحة... صحت فيـــهم... لــم يسمعوا...! ولم يتوقّفوا...! مددت يدى ألمسهم...! كــانت أصـــابعى كل مرّة تقبض على لا شئ... كانوا منصرفين إلى شئ لم أتبينـــه... اختفوا فجأة ... وتعرّى المكان... تلفت ذعرى الخـــائف مـــتردداً... وأطلّت وجوههم تقهقه فى خبث شيطانى ... ثم اختفت...، تطلّعـــت إلى نفسى ... كنت عارياً، وقد تدلّت مذلّتى فى خشوع منكمـــش... سقط رأسى على صدرى ... وعجزت عن أن أرى المزيد.

* * *

لم تكن تريد أن تداعبه كما اعتقد،... فقد لامست أصابعها جسـده بطريقة الخطأ ... فبلع أنفاسه التى فضحته،... وارتعشت أطرافه،... وتمنّى لو كررتها ثانية.

كانت الساحة تموج بعطور نسائيّة دافئة... وكان يقـــف بينـــها مترنّحاً ... وهو يتنفّس رائحتها العذرية، لكنه عجز عن الاقتراب.

... ها أنت ذا تطفو على السطح الساخن من جديد،... تدفعـــك الأمواج الحرارية فى دفعات مضطربة،... ومع ذلك تشعر أن كـــل شئ ساكن بلا حراك...! ومن جديد زحفت البرودة الثلجية ... فتلفـــع المشهد بالندف الثلجيّة، فانكمشت أكثر من ذى قبل ... قـــالت امـــرأة المشهد: هل لك فى رشفة ساخنة؟ لم تلق جواباً ... لملمـــت نفســها

وقفزت خارج المشهد... كان يودّعها بنظرة مســتجدية متفزّعــة... وغاب المشهد من جديد فى فضائه الثلجى.

* * *

تمددت المساحات الفراغية، وقد غلّفها دخان فضّى... انتشر فــى كل الأمكنة، يعبث بكل ما تصل إليه أصابعه... لم يستطع التوصّـــل للسرّ الكامن،... فوقف فى مفارق الجهات الأربع... قالت لــــه: هــا أنت تعود من جديد، لكن بلا فائدة... افترست النبوءة عينيه،... فأطلّ فزعهما يلحق التحسّر:

- يمكننى المحاولة
- ستنال شرف الفشل الرفيع.

ثمّ فى تخاذل:

- ربّما تنجح إحدى المحاولات

أطاحت العواصف بقمم الأشجار، فهوت ووقفت جذوعها عاريــة متخبّطة... لم يحن بعد زمن التقاعد، ومع هذا فقد تمّ بلا طقـــوس... كانت المغادرة سريعة ومملّة... ولمّا لم يكن لديك ما تحمله، هممـــت أن تقول شيئاً، لم تجد من يصغى إليه... انسحبت فى صمت لم يشعر به أحد.

أعدّ قاربه للإبحار... نفخ أشرعته... وأيقن أنّــه مــن المؤكّــد سيندفع بكل القوّة اللازمة، فالأشرعة المنتفخة تنبئ بــالآتى... لكــن الحماس لم يدم...، فترت اللحظة، وتسلل الوهـــن رويــداً ويــداً... تلاعبت الأمواج بأشرعته، وقد تهدّلت...

همس لى فى تلصص حذر: سوف يسقط الملاعين تباعــاً بعــد كبيرهم ... أتذكر يوم أن كان طيّباً... تطفو السذاجة السمحة علــى قسماته...، كان يتعثّر إذا تلقى عليه التحيّة...انظر الآن ماذا أصبــح؟ والفضل فى هذا يعود إليهم ... لكنهم سيدفعون الثمن غالياً ... فقــط عندما يسقط، وسيتمّ هذا قريباً ...

فكّرت فيما يقوله،... وأنا متيقّن من صدقه.

•   •   •

لاطم وجهى صوت صارخ ... حانت لحظة الانتصار.

جاءكم الشرّ الظالم ينفخ نيران الحقد ولعنات التخابث ... ترقّبــوا لحظة الانقضاض، فستأكلكم نيران عيونكــم المتقيّحــة ... وســتبتلع دهشتكم... الموقّرة.

جمع الابن الأكـــبر أخوتــه الذكــور ... العجــوز قــد ازداد استبداده،... يستأثر لنفسه بكل شئ ولا يعمــل،... كبرنــا ومازلنــا صغاراً .. نعمل بالقليل، وكل شئ ملكه... نحن أنفسنا ملكه... بعـــد محاورات حول الحقوق والواجبات، اتّفق الجميع على مخاطبته فـــى

أمر التنازل لهم عن حق الإدارة والتصرّف،... وعندما رفـــض ... قيّدوه فى مكان منعزل،... وحبسوا عنه كل شئ عدا الطعام، حتـــى يفكّروا فى أمره ... تولّى الابن الأكـــبر الســلطة،... ووزّع الأدوار على الآخرين... لم يدم الأمر طويلاً،... حيـــث بــدأت مؤامــرات النساء.

* * *

قابع أنت بين الحائط والمرآة... وكلّما أبصـــرت نفســك، ازداد نفورك وتقززك...، تصببت تعاسة، وتســـربت الــبرودة لأطرافــك فارتعدت... وفى انتظار ما لا يأتى تستكين للمذلّة...، غالبك الألم... وها أنت ذي ترتمين فى أحضان المذلّة ...، تتحدثين الآن كثيراً عــن الرحيل...، وتلتقطين الأصداف ...، تقذفها أمواج البحر وقد تجمّـدت فى بياض معتم ... وفى نهاية الأفق ازدادت كثافـــة العتمـــة قاذفـــة برياحها.

العزف على أوتار الصمت

نظرت فى المرآة ... تملكتنى الدهشة المباغتة... كانت المـــرآة لامعة، وكل ما حولى معكوساً عليها، سواى ... كان مكانى فارغاً.

• • •

تشاور السلطان مع خلصائه... كانت خزانة الدولة فارغـــة،... ولم يتبقَ شئ لم تفرض عليه ضرائب،... والعسكر بدأوا يتذمـــرون

لتأخير رواتبهم... تفتّقت حيلة أمير الحسبة ... نفرض يـــا مـــولاى ضرائب واجبة التحصيل الفورى على كل من يرتدى حــــذاءً جلديّـــاً وحامل جورب . .؟ راقت الفكرة للسلطان ... فأصدر مـــــن فـــوره مرسوماً سلطانيّاً واجب النفاذ،... وانتشر رجال الحسبة فى الشـــوارع والطرقات لتحصيل الأموال.

عندما انتشر الخبر فى أرجاء السلطنة، أسرع الناس فاســـــتبدلوا بأحذيتهم الجلدية وجواربهم،... القباقيب الخشـــــبيّة التـــى لا تحتـــاج بدورها إلى جوارب... بين يوم وليلة، راجــــت صناعـــة القبـــاقيب الخشبيّة وكسدت سوق الأحذية الجلديّة والجوارب، ولم يجـــد رجـــال المحتسب ما يجمعونه... انتهى الأمر إلى السلطان الـــذى أمـــر ... فعلّقت رأس أمير الحسبة على البوابة الرئيسيّة لعاصمة السلطنة.

* * *

تهلل وجهها بفرحة داعية... تسللت أصابعى فعانقت أصابعها... همستْ فى دلال اشتقتك ...، ارتعشت الكلمات فى حلقى، ثمّ وهـــــى تجذبنى بشراسة حانية ... غبت كثيراً.

لاطمت أمواج البحر نهاية الشفق،... فانساب الأرجوانى مختلطاً بزبد الموج... فارت أصوات الألوان تدمـــدم مـــن خـــلال رائحـــة الأعشاب البحريّة... فجأة أعلن صمت ســـاكن انكســـار اللحظـــة...

تقلصت الألوان، وصعد الأرجواني إلى سمائه ... انساب زبد الماء حاملاً أعشابه الطريّة... انطفأت أضواء المشهد منسحبة في مذلّة.

* * *

جلس، حيث أشاروا إليه... تفقّد المكان... لم يعرف فيه أحداً.

كانت الأرض مفروشة ببساط متداخل الألوان بشكل معقّد... لم يستطع أن يميز فيها لوناً محدوداً... وكانت الألوان المتداخلة تصنع أشكالاً هندسيّة متعددة ومتداخلة ... انشغل لحظة في إحصاء الأحذية النسائيّة والرجاليّة... بعد أن عدّها بإتقان ورويّة، نسي عددها... ابتسم مرتبكاً وشرع يعدّها ثانية... سمع اسمه، فهبّ واقفاً... سار خلف مناديه في استسلام... انتهى إلى منضدة أطلّت من خلفها بضعة رؤوس... نظروا إليه... نظر إليهم... أنت ... نعم ... نظروا إليه في سخرية لاذعة ... هل تعرف ...؟ نعم ... قال الرأس الكبير بازدراء ... لا يبدو عليه سوى الغباء المتعفّن ... صاحت الرأس الصغير في لهفة عاجلة: انصرف الآن... من تبقّى ...؟

عاد خطواته العشرين التي جاء بها... لم يلحظ في عودته ألوان البساط ولا أشكاله الهندسيّة، كما أنه لم يحص الأحذية المتبقية ... مع أنه لم يرفع رأسه عن الأرض.

* * *

هاجمت المخلوقات الجديدة المدينة... كانت تطَّاوَلُ فتصل إلـــى نوافذ الأبنية المرتفعة،... وتتضاءل فتنســـاب مــن بيــن فرجــات الأبواب... اندفعت تبتلع فى شراهة كل من يصادفها مــن أحيــاء... استسلم الناس، وأدركوا أنها نهاية العالم ... لكن الأحداث التى جاءت بعد ذلك كانت أشدّ غرابة... اجتمعت المخلوقات فى الشارع الرئيسى للمدينة، بعد أن أتت على سائر أحياء المدينة... أخذ كل واحد يتقيّأ ما ابتلعه... اندفعت المخلوقات الآدمية، كائنات فى حجم الأصبع... لــم تلبث هذه المخلوقات أن اختفت، ونظر الناس بعضهم إلى بعــض ... ولم يعرفوا ماذا يفعلون.

• • •

تسلّم الخطاب فى خوف... فضّه فى قلق... صحّ ما كان يفكــر فيه ... إن عليه أن يترك الإدارة لمن سوف يأتى بعـــده... وأمامــه شهر عليه أن ينتهى خلاله من كل المتعلّقات والإجراءات... ربـــت على ظهر المقعد الوثير... احتضنه فى شوق... تجولـــت عينـــاه... مسحت ظهر المكتب الكبير ... وانتقل ببطء بين اللوحـــات المعلّقــة على الحائط والبسط المفروشة فوق الأرض، تناثرت نظراتـــه بيــن المقاعد والمناضد المنسقة، وأصص النباتات المختلفة التى لم يســتطع أن يحفظ أسماءها... المتراصة فى أناقة بديعة.

صاحت الفرحة معلنة انتصارها... ستكون له غرفـــة كـــهذه... على الفور أخفى خطاب الوزارة وأصدر أوامره... انشـــغل طـــوال الشهر بالإشراف على إعداد الحجرة، عندما تمّ تجهيزها تماماً، أعلــن فحوى الخطاب، وسلّم المدير الجديد الحجرة القديمة... دخل حجرتـــه الجديدة فى زهو منكسر.

عند انتهاء ساعات العمل...، وجـــده الســاعى منكفئــاً فــوق المكتب... كان قد فارق الحياة.

أعلن المدير الجديد على الفور أن تشييع الجنازة ســـيكون مـــن الغرفة الجديدة ... على أن يسجّى جثمـــان الفقيــد فــوق المكتــب، وتوضع حوله الزهور اللائقة.

* * *

حبيبتى الحزينة... فراغ رحلتى قلق... ولم يعد لدىّ ما أقدّمه... والحزن فى عيونك الحبيبة ... قاتلى.

حبيبتى ... هل تذكرين أمسنا،... ورفرفات طائر الياسمين فوق دربنا... ووشوشات السوسن،... وزنابق المـــاء المنـــدّى بالشـــذا... أحلامنا كانت،... وكانت باتســـاع حبّنـــا... وفجـــأة هبـــط المســـاء أرضنا... لم أبصر الحزن فى عينيك.

بل أحسسته... بحثت عن أوتارى القديمـــة، أبتعـــث ألحانـنـــا... أخفى ظلام الليل كل شئ... والحزن يولد فى المســـاء، كمـــا يقـــول الشاعر.

فتوحات سيّد الزمان

أيقظه للمرّة الثالثة معنّفاً... انهض، فقد حانت اللحظة ... وعلينا أن نتحرّك، وإلاّ ضاع كل شئ ... لكن يا سيّد الأسياد والفاتح الأكبر، لم نمهّد للفتح... فما زالت التضاريس غائمة المعالم،... والسطح مسكوناً بالأنقاض... صاح فيه هادراً: ألم أقل لك انهض ... فالفاء من الفلاح، والفاء من الفهم والفهلوة، والفاء من الفرج ...، لكنها يا سيّدى أيضاً من الفشل، ومن الفقر، ومن الفزع، ... نهره

بحدّة ... والله ... إنّى لمشفق عليك وعلينا ... والله ...، لـولا أنّـه زارنى فى منامى، وطلب منّى أن أدفع بك،... فعلى يديك السـمينتين يتحقق لنا الفوز العظيم.

تسللت أشعة شمس الصباح من فرجات النافذة... سقطت علـى وجهه البدين، فبدا أحمر لامعاً... نهض متثـاقلاً ... يسـحب بقايـا نعاس خامل لم تبدده المفاجأة بعد، لكنه كان واعياً بالقدر الذى شـعر معه بنشوة الانتصار، وازداد يقيناً بأنه إنسان لا عادى، وأنه يحمـل أسباب التفوّق والنصر...، وصاح بصوت غطّى على صوت اندفـاع الماء،... بعد أن جذب مقبض الطرد فى الحمّام ... ها أنذا ... الفاتح الأعظم...، قادم إليكم ... ثم نظر إلى نفسه وابتسم ...، أرفـع بيـد مئزرى شاهراً سيف العظمة.

* * *

اشتهر عن صاحب الأمر نهمه الشديد للطعام، فكـان إذا جلـس إلى طعام ... تجمّعت حواسه كلّها فى عينيه وفمه...، سـألا عنـه، فعرفا أنه جالس بمفرده فى بهو السلطة... قادا الذبيحـة... نحرهـا الفاتح الأكبر...، وغمس يديه فى دمائها... جذب البدين ودفعه، بعـد أن لطّخ وجهه بالدماء ...، فسجد بين يدى صاحب الأمر ... يا سـيّد الملاعين، ها أنذا أجثو بين يدى رحمتك، أعفّر وجهى بالساقط مـن نعلك... الدم بدل الدم ...، واللحم عوض اللحم...، والنفس بين يديـك

سابحة... أوقدا النار ... وفاحت رائحة الشواء ... فغاب وليّ الأمـر عن الوعى.

قدّما الشواء والنبيذ... فـي نشـوة الامتـلاء، أوثقـاه بأمعـاء الذبيحة،... واستكتباه أمراً بالولاية.

* * *

انتصف النهار،... ولزوجة الحرّ والعرق زكمـت الأنـوف... أرسلا من يشيع الخبر فى الولاية قبل مقدمهما، وبثّا العيون ومروّجى الأقاويل من رجالهما فى الأنحاء... وعندمـا تـأكّدا مـن درجـة الاستكانة، لم يفكّرا فى مجلس الحكم...، فقد كان غارقاً فـي مذلّتـه الأبدية.

ارتفعت أصوات المأجورين معلنة القدوم الميمون،... فصـاحت أذرع المذلّة بغباء موروث ... مبارك علينا فرج الفتـوح...، تدلّـت أصابع الشعر الورقيّة ... تعلن صمت الحداد.

* * *

جلس أمام باب الولاية يستقبل الولاية... هذا امتدادك الزمنـى، وظلّك المكانى... ربّما تكون قدراته أقل،... ولكنك ستتحرّك بـه... تحمله فى جيبك وتضعه، فلتقاه حيث تريد... لن يستطيع الحركـة إلاّ بك...، هكذا يمكن تحقيق الرغبات الباقية...، تسلل الزمن ... ومـا

تحقق لا يقاس بما لم يتحقق بعد... والأمـــل معقــود علـــى لحمـــة الرأس... نظر إليه... كان قابعاً خلفه... غارقاً فى بلاهة فطريّـــة... حمد الله أن هداه لمثله،... فليس مثله كثيراً تفحّـــص معـــالم الزمـــن الآتى... مازال أمامه الكثير ليفعله ... وأيقـــن تمامـــاً أنـــه يـــد الله الغاضبة فى الممحاوات الإسفنجيّة... كل شئ يؤكّد هـــذا... رحيـــل البطريق...، ومقاعد الدهشـــة...، وأصـــابع الشـــعر ...، وبلاهـــة الغطريف...، أمّا حماقة الممحاوات فمن السهل احتواؤهـــا... هكـــذا تلاحقت المشروعات المؤجّلة تتدافع... تحـــيّر، بأيـــها يبـــدأ ... ولا بأس من تقديم بعض التنازلات الدنيئة لعظام المركب.

تقدّمت النعال المنهكة تعلن الولاء... امتلأت صكوك التنـــازلات بآلاف التوقيعات الغامضة، مطموسة المعالم...، طلب منه أن يحمـــل المقعدين إلى الداخل،... فأمامهما نهار شاق المعالم...، انصاع فـــى بلاهته السعيدة ... وأغلقا خلفهما الباب.

* * *

استند بظهره إلى باب الغرفة التى امتدّت باتّساع العالم... مـــلأ رئتيه بنسيم الغرفة المكيّفة ... وأغمض عينيه لبرهة... أفلح الـــهواء البارد فى ترطيب أفكاره... عندما أعاد فتحهما فى تكاسل لذيـــذ،... وقعتا عليه... كان يجلس متنمّراً فـــى نهايـــة القاعـــة إلـــى جـــوار المكتب،... وقد بسط كلتا يديه،... فشغل قرابة نصـــف المكتـــب...

أشار إليه أن يحضر بسرعة،... وأن يجلـس قبالتـه علـى المقعـد المقابل،... كان قد نسى أمره خلال اللحظة الفائتـة... تحـرك فـى تكاسل متحسساً كل قطعة أثاث يمرّ بها ... أسرع يا بليـد ...، لـم يرقه الوصف...، وصل الصوت الزاعق إلى مسمعه نـهيق حمـار عجوز ... لذّ له أن يتكاسل أكثر ... الغرفة الطويلة مفروشة بأكملها بسجاد فاخر نظيف، تلمع نقوشه بزهو منتصر... تنـاثرت بضعـة صالونات وثيرة المعالم ... استحثّه الغبى بنظرة قلقة لم يهتمّ بـها... أسعده أن يراه معذّباً بقلقه... أغمض عينيه فى تكاسل خبيث...، زاد القلق، ولابد من تحديد كل شئ ...، والآن وإلاّ فلن يفلـح فـى إدارة العرض... امتدّت ضبابات الحيرة بينهما، ولذّ لكل منهما أن يعبـث بالآخر.

انتشرت رائحة النصر فغلّفت المكان، ولم تفلح محاولات سـارق الزمن فى امتصاصها... حاول أن يستعيد سيطرته على نفسه...، فقد أقلقه تخابثه الكسول... لكن لا بأس، ففى النهاية لابدّ وأن ينتهى بـه المسير قبالته... وفى انتظار اللحظة، جلس يداعـب أفكـاره التـى استعصت على الترتيب الذى تعوّده.

* * *

لم يرض أن يجلس قبالته...، فقد توجّه إلى المكتـب العريـض المتسع مباشرة... فتح درج المكتب... لم يكن يعرف ما به،... فـهذه

هى المرّة الأولى له هنا... وجد مجموعة أوراق... وضعها أمامه... نظر فيها...، أعاد النظر... لم يفهم منها شيئاً... علت وجهه دهشة مبهمة ... ماذا تريد الآن يا سيّد العصر الحجرى...؟ وهذا زمانى... وصدفة أنك مازالت حيّاً... نظراتك القبيحة الماكرة لا أستطيع أن أتحاشاها، ولابدّ من المواجهة...، لكن المشكلة فى البداية ... يا شيطان السماء والأرض، أبيعك عمرى مقابل المساعدة ... هل يمكن أن نؤجّل الحديث إلى وقت لاحق...؟ فأنا متعب ومشتت الذهن ... قالها فى خوف حذر وهو ينظر فى درج المكتب الجديد... لم ينطق، وتمسك أكثر بمقعده... ربّما جاء من ينقذه... طال الصمت،... وانكمشت الغزالة الوحيدة فى خيوط السجّادة... حاصرتها النقوش من كل مكان،... فبدت مذعورة وجلة... أشرق وجهه فجأة وهو ينهض عن مكتبه ... عفواً، سأذهب إلى دورة المياه، وربّما أغيب قليلاً ...

ما لم تقله شهرزاد

... فكانا لا يفارقانه لحظة... القصير على يســـاره،... والآخــر ملتصقاً بأذنه اليمنى .. إذ لم يكن يتوقّف عن الهمس المبتسم فــى جدّيــة بلهاء،... واكتفى القصير بالصمت المستكن... استمرأ اللعبة،... فكـــان يحلو له أن يهرول وهما يسرعان فى همة جادة للحاق بخطواته اللاهثة.

• • •

تهلّين فى سماء غربتى... زنبقة... ترشرشين عطرك الشـــذى فوّاح الندى ... تدغدغين أمسياتى الحزينة ... أشكو إليك يا فوّاحـــة العطر المنغّم بالحياة... أشكو إليك تعاسة الزمن القبيح، مسوخ أيـــام المذلّة والهوان.

* * *

نظر... فلم ير شيئاً، ولكنّى رأيت... تحـــدّث إليـــهما... كـــان يتحدّث إلى نفسه بصوت مسموع... هزّ القصير رأســـه موافقـــاً،... وضحك الآخر بالموافقة فى أذنه،... واستمرّ سيّد القرار فى تفكـــيره مسموع الصوت ...، وبهذه الطريقة نكون قد دخلنا حضارة القرن... لكن ... أيقظته الكلمة، فتوقّف... من قالها...؟ أنكر كلاهما أن يكون هو القائل... لم يهتمّ كثيراً.

كانت الأرض الممتدّة أمامه تتسع مع امتداد البصـــر...، حتـــى أصبحت فضاءً بلا حدود: ونُكوّن وحدة ذات طـــابع خـــاص، تقـــدّم خدمات تسهيلية، وتعاون الباحثين... أحسّ بزهو التفوّق ... وأيقـــن أنّه فعلاً مبعوث إلهىّ،... وأن فى رأسه من الأفكار ما يحيل العـــالم إلى كوكب للمسرّات المحكمة... أسرع فـــى خطواتـــه الجـــادة،... وابتسم وهو يرقب هرولتهما للحاق به.

* * *

توقّف فجأة ... توقّفا ... تناغم النشاز، وهـا أنـذا أدنـو مـن البداية... وفى جعبتى مجموعة من المتـاعب والآلام المزمنـة،... وآمال لن تتحقق... زائدة ... تابعت السنجابين فى أسف وهما يقبعان داخل الحذاء... لا تستطيع أن تجزم إن كانا يعقدان رباط الحـذاء أم يفكّانه...، فقد كان كل منهما ممسكاً بطرف يجذبه ناحيته... جلـس يلعق زهوه المنتصر، ويلوك كلمات جوفاء... أنصت الحاضرون إلى بأسهم و تضاءلوا... كنت الوحيد الذى فرش الصمت ...، و بـاغت الحضور.

• • •

أعلنت الملصقات التمرّد والمجاهرة... لا صـوت يعلـو فـوق صوت الملصقات ...، تطاولت عيون الدهشة الفارغـة... وصـاح المنزوى فى آخر المكان... لك أن تقول ما شئت ... وقفـتُ أمـام براءتى الدائمة... وجرى كل شئ دون أن يكون بحوزتـى طريقـة لمعرفته... أخذنى من يدى ليجعل منّى الشاهد... لكن، كـان هنـاك الأسوأ، فقد حددت نوايا التأنّق أسـرار جـذب المغـامرات العذبـة للبائسين... وكان لابدّ من متابعة الأسرار المبتذلـة بطريقـة غـير مألوفة... أحدثت الابتكارات ترددا غريباً ومفاجئاً ... تغيّر الأفق،... ومالت ألوانه القزحية بين الإخفاق ... والجنون ... والرذيلة.

• • •

كثرت الشائعات حول السنجابين وعلاقتهما برقبة الحذاء... أوهمهما أنه لا يستطيع العمل بدونهما، مع أنه لم يعرض عليهما أمراً.

كانا مدركين أنه يكذب بشدّة،... وأنه أراد لهما أن يمتصّا الغضب إلى الحدّ المسموح... لكنهما طمعا فيما يمكن أن يحققاه من وراء طيشه الغبى.

أمام باب غرفة النوم، انسحبا فى مذلّة مصطنعة ... واصطدما وهما يعتدلان،... فابتسما،... فقد ضبط كل منهما الآخر فى حالة تلبّس.

*   *   *

كان على يقين تماماً بفلسفة البناء بالهدم.

صـــوت: هل تمّ كل شئ؟

صدى أوّل: تمّ لا شئ.

صدى ثان : ... كل شئ.

ثمّ وهو يقهقه فى بلاهة منتشية:

صـــوت: هل رأيتموه آخر مرّة؟

صدى أوّل: آخر مرّة ...

صدى ثان: ... مرّة.

تحسس كرشه المنتفخ قليلاً،... والتفتا معه فى فراغ المكــان،... ومع أنه كان قد فرغ لتوه من تنـــاول طعامـــه،... إلاّ أنـــه أحــسّ بالجوع،... فأسرعا لإحضار الطعام.

* * *

داعبت أصابع الحيرة وجه القلق... بدا كل شـــئ غارقـــاً فـــى الصمت، عندما تمّ استدعائى لأمر هام... لم أهتمّ كثيراً،... وقابلتـهما على الدرج كتفاً لكتف ... قالت: وأنت أيضاً... تلفّت أبحـــث عـــن الأيضاً... لم أجد سواى... هى تقصدنى إذن... لم أكن قـــد تكلّمـــت معها كثيراً من قبل،... لكن شيئاً من أنوثة فائرة جعلنى أتلفّت خلفـــى ... للمياه أسرار خفيّة،... لا تعـــرف بـــالضبط متـــى تتكشّـــف...، وكيف... التفتتْ،... فضبطتنى،... فابتسمت ... اشـــتعلت روائـــح العطر البرّى بالأصفر والأحمر والأبيض ... فار الأرجوانـــى فـــى ابتسامتها الداعية،... واندفعت الأمواج الهادرة مع نداءات الأجـــراس وفحيح الأصوات السرّية... تسللت خلفها فتباطأت حتى لامس كتفـــى كتفها ... انتشيت بالحذر المسكر ينساب ببطء متوتّر... قرب نهايـــة الممر،... قفز الأمر الهام،... فتقلّصت أصابع الرغبـــة،... وقفـــت حائراً وقد غاصت قدماى فى وحل المستنقع... ضـــاعت ابتســـامتها الداعية فى أصفر شاحب ... وانحدر العرق الساخن برائحة القلـق...

صاح الجميع حولى يحذروننى من الحركة،... وإلاّ ابتلعتنى الأوحال.

* * *

قالت شهرزاد: فلمّا حطّ الرخ بفتح الباب الإسكندرى على الجزيرة المهجورة،... نهض يتفقّد المكان ... فلم يعثر على أحد... كانت الجزيرة غارقة فى صمت ليلى ... وقد انتصبت بعض العيدان الجافة... وكان كلّما أمسك بعود منها انثنى دون أن يصدر صوتاً ... صاح بأعلى صوته ... أنا فتح الباب الإسكندرى ... وانتظر لمحة بصر ... عاد إليه صوته مشوّهاً ... كرر المحاولة مرّات ... هذه التعب فنام... فى الصباح أيقظته أشعة الشمس ... كان كل شئ كما وجده قبل أن ينام ... لا شئ سوى الصمت ... عندما حاول النهوض، وجد إلى جواره سنجابين يتحسسان أطرافه ...

ثم تابعت شهر زاد حديثها ...، هذا ما كان ... أمّا ما حدث بعد ذلك فأنت تعرفه ... قال ملك الزمان: ... وكيف انتهت حكاية فتح الباب هذا يا شهر زاد ؟... قالت: لقد بدأت يا مولاى، لكنّها لم تنته بعد.

أصداف زبد الموج

بهدوء حاذر،... سحبت المقعد الخالى ... وجلســت...، كــانت تلهث...، أخيراً تم المراد... ودّت لو انفردت بنفسها حتى تهدأ، لكنها لم تحاول ... وتدافع المهنّئون ...، كل الإنجازات العظيمـــة وليـدة الصدفة،... والسعى يحقق اليأس.

عندما تيقّنت، حاولت التوقّف وبعد أن استكانت لليأس،... جاءها صدفة... شعرت بظمأ شديد وهى تسحب ثوبها لتخفى ما تعرّى.

* * *

كانت الأمواج المتدافعة تصطدم بصخور الشاطئ ... فيصعد الزبد بفورانه الأبيض ... ويرتدّ صانعاً دوائر دوامات تسحب إلى جوف البحر ما تصادفه،... وعلى الشاطئ الرملى تناثرت بعض الأصداف معلنة انتصارها المؤقّت... واندفعت مناقير النوارس تلتقط ما يصادفها بين الرمال والصخور والأمواج.

كانت السحابات الداكنة،... التى تجمّعت فوق بعضها ... تنذر بيوم عاصف مطير،... ولم يكن باستطاعتك معرفة ما إذا كانت طيور النورس فى حركاتها تبحث عن مأوى ...؟ أم كانت سعيدة بهذا الجوّ ...؟ أم قلقة...؟ تخيّلت الأمر على جوانبه... لم تتوصّل إلى معرفة شئ، وظلّت طيور النورس فى تدافعها وتراجعها ودورانها مع امتداد نهاية الأفق.

* * *

فاح عطرها يستصرخ نجدتك ... كنت تبحث عن أشياء لم تعد لديها... تحتفظ بالبقايا فى قلق متخوّف ... حدّثتها عن رحمة الله بعباده،... وعن الأرزاق وتقسيمها،... والحظوظ وتصريفه فيها،...

لكنها لم تقتنع تماماً،... ونهضتْ متخاذلة تتمتم فى همس مرتعش...؟ تحرّكت فى بطء لاهث...، وأنا ألاحقها ... أنت سيّدة فضلى، ومـــا أنت فيه فضل من الله سبحانه وتعالى... لا تقلقى،... وتـأكّدى أن الله سبحانه يختار للإنسان أفضل ما يصلح له وما يصلح عليـه ...، و... ابتلعت ما تبقّى وأنا أتابع ترهّلات البشاعة،... تحجب النقاء.

* * *

دلفنا من الفتحة الضيّقة ... واحـداً، ... واحـداً، ... تحسسـنا الجدار ونحن نمرّ،... انزلقنا إلى متّسع متوهج الضيـاء ... كـانت رائحة الخلّ المختلطة بشئ ما بين السكر المحترق والعظـام، تديـر رؤوسنا... أعرف... هذه الرائحة جيّداً، لكنى لم اسـتطع أن أتذكّـر أين أحسست بها... توقّعت عندما دخلت أنى الأخير،... لكن توالـى الاندفاع... كان فضاءً بلا حدود ... وتناثرنا بداخله ... عندما نظرنا فى وجوهنا ... كنّا جميعاً متماثلين.

* * *

جلستْ معهم على المنصّة الرئيسية،... اتّخذت مقعداً فى الطرف البعيد،... تهزّ رأسها فى كل الاتجاهات، فيهتزّ اللحـم الزائـد فـى رقبتها... لم ينظر إليها أحد،... فقد أوشكت أن تقول شيئاً،... ولكنـها حرّكت فمها فى صمت... استكانت إلى صمتها،... فلم يكـن لديهـا شئ محدد لتقوله... اختارت عزلة الصمت من سنوات،... فقد فقـدت

كل ما يستوقف الآخرين... تراكمت السنون... طيّات متهدّلــة مــن الشحم ... وثنايا ... وتجاعيد سافرة الوضوح.

ولم يعد يهمّ ما سوف تأتى به الأيام ...

تحرّكت كتلة الشحم الحمــراء المتصــدّرة المجلــس .. قــالت، وقالت، وقالت ... تشاغلتْ بمعابثة أشياء وهميّة،... ومن حين لآخـر تغمض عينيها المجهدتين فى فتور متكاسل، ... ورأسها يــهتزّ فــى انبهار.

تعلن شركة الخطوط الجوّية عن رحلتها التى أقلعت... لا تـدرى لماذا وافقت على السفر،... والرحيل لا يحمل الجديد ..

- بمفردك
- دائماً
- مغادرة .. أم عائدة...؟
- المغادرة عودة.

بلعت شيئاً من الطعام،... وحاولت النوم .. منذ مدّة وهى تحاول النوم بلا جدوى،... تظلّ ليلها شاخصة إلى زبد الموج يعلــو فــوق الجدران حتى سقف الحجـــرة .. تحــاول الســباحة ... ولكنــها لا تعرف،... تلتقط أنفاسها فى اللحظات التى يرتدّ فيها الموج .. ومــاذا تبقى لها .. بضعة سنوات من المهانة وترهّلات لا تتوقّف .. عاودهـا ألم ساقيها فحرّكتها قليلاً .. فى المطار تفقّدت كــل شــئ،... ألقــت

حقيبتها وحيدة فى ركن منزوٍ،... دفعتها أمامها،... اتّجهت إلى قســـم التأشيرات... همست للواقف خلف الزجاج .. هل يمكن لى أن أعــود على نفس الطائرة ... أومأ لها بالموافقة،... وهـــــو لا يســـتطيع أن يخفى دهشته.

المحتويات

رقم الإيداع ١٤٢٦٢ /٢٠٠٣

الحضـــرى للطباعـــة

١١ ش منشا - محرم بك - إسكندرية

ت : 03/4944977

موبايل : 010/1349456